الأستاذ الدكتور محمود السيد رئيس المجمع

أعضاء المجمع الموقرون

السادة الحضور

اسمحوا لي بدايةً أن أشكر الدكتور مكي الحَسَني على ما ذكرني به مما آمُلُ أن أكون أهلاً له، وأن أتقدم منكم بوافر الشكر والتقدير لحضوركم ومشاركتنا هذا اللقاء الذي أعتبره من أهم محطات حياتي؛ فطَوال سني عملي وأنا أبحث من قلب العتمة عن ومضة نور، ومن خضم المعارك عن منبر لعمل يسهم في البناء، ومن فوق تلال الخيبة عن مسارٍ يُصوّب لي حافز العمل، وحين شرَّفني أعضاء المجمع بانتخابي لمشاركتهم هذا المنبرَ العريقَ، منحوني ومضةَ النور لأتابع المسارَ، وليعود الأمل بالعمل من جديد. فوجب عليّ أن أشكر من الأعماق رئيسَ المجمع، صاحبَ الخبرة والتاريخ والعلم، الأستاذ الدكتور محمود السيد، وأن أتقدم بجزيل الشكر والاحترام والتقدير لأعضاء المجمع واحداً واحداً على ما منحوني إياه من ثقة آمُلُ أنْ أكون أهلاً لها.

ولن أنسى هنا ذكرَ فضلِ والدي، رحمه الله، الذي قادته فلسفته الحياتية البسيطة، والعميقة في الآن ذاته، إلى الإيمان بمسار العلم مَخرجاً وحافظاً للكرامة والمستقبل، فَبَنَى بداخلي اللبنة الأولى لحب اللغة العربية والتمكن منها حين أصرَّ على تعليمي قراءة القرآن وحفظه في منزلنا البسيط وقبل سنّ دخول المدرسة. فأرجو أن أكون قد وصلت إلى بعض ما كان يتمناه.

ولأنّ النهرَ لا يستديم إلا بينابيعه وروافده، لن أنسى فضل أخي الدكتور وائل بركات، الأستاذ بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، فقد كان سنداً دائماً، وساهم بإرشاداته ومناقشاته ومكتبته الغنية في ولوجي عالمَ الأدبِ واللغةِ والفلسفةِ. أطال الله في عمره وأدام عطاءَه.

أيها السادة

بالرغم مما نمر به من خيبات وخسائر في هذا البلد الحبيب، كنت أرى في امتزاج الدموع وبريق الأمل بالحياة في عيون السوريين وعداً بغدٍ أفضل. كيف لا؟ وهم أبناء سورية التي أعطت شعوبُها عبر التاريخ للعالم ما أعطت من لغة وحضارة وتجارة وزراعة واقتصاد وأديان، وهم أبناء سورية التي عصفت بها كل صنوف النوائب فلم تمت، بل كان شعبها يعود بعد كل نائبة ليتابع نهجها الحضاري الإنساني، بصرف النظر عن مسارات الحرب والسياسة وغاياتها ونهاياتها.

ما أتحدث عنه أيها السادة هو تلك الروح التي تسكن كلَّ سوري حفظ عهدَه بأن تكون سوريته نموذجاً يجمع تاريخ حضارته ومستقبل عروبته. ولا يخفى عليكم أن وعاء الحضارة وحاضن المستقبل لأية أمة يتمثلان بالضرورة في لغتها. ولغتنا العربية، وهي من أقدم اللغات، صانت نفسها تاريخياً، لكننا قصرنا في تطويرها في الزمن المعاصر. فقد أظهرت مقدرتها على استيعاب علوم العصر ومستجداته عندما كان بعضنا مستعداً لبذل الوقت والجهد الكافيين من أجل خدمتها. إنها بالقدر الكافي من المرونة والمطواعية والتعددية وقابلية الاشتقاق لتساعد الباحث منا على نقل العلوم والمعارف التي تكفل تطور الأمة لتحقق إسهامها في البناء الحضاري، ولتضع نفسها في موقع يضمن لها القوة.

والقوة أيها السادة، وبمعانيها كلها، من قوة الرغبة بالحياة والمواطنة، إلى قوة القانون والأمة والدولة، إلى قوة الرغبة في البقاء على خارطة الحضارة البشرية، هي التي تحفظ اللغة والحضارة وتصونها، ومن هنا يأتي دور كل منا، أفراداً ومؤسسات، في تقديم ما يطور وعاءنا الحضاري ويحميه من الاضمحلال الذي تهدف إليه أشكال الصراعات المختلفة التي تدور على أرضنا الحبيبة. ولم تكن لغتنا، وبالتالي وحدتنا وأرضنا، يوماً مهددةً أكثر مما هي عليه الآن مع اختلاف أصناف الاستهداف والصراعات وطرائقها بدءاً من الاحتلالات العسكرية وانتهاءً بالإخلال بطبيعة الحياة اليومية ومساراتها واهتماماتها. وأسوق هنا مثالين اثنين على أخطار أحدقت وتحدق بلغتنا في العصر الحديث:

- المثال الأول هو تأثّر اللغة العربية سلباً بما فرضته أشكال الاستعمار العسكري منذ الاحتلال العثماني وحتى خروج آخر جندي فرنسي من بلادنا، ولن أطيل في هذا فالكل يعلمه ويعيشه ولقد أشبعه علماء اللغة دراسة. ولكني سأشير هنا بخصوصية إلى موضوع استخدام لغات أخرى وتعزيز اللهجات المحلية والمناطقية. وقد استُغِلَّ هذا الموضوع ليؤدي دوراً سلبياً في التشتيت والتفريق ظهرت آثاره بوضوح خلال أزمة سورية الراهنة التي استهدفت فيها قوى الشر والعدوان أرضها وشعبها وقيمها وأخلاقياتها، وأرادت تمزيق صفوف المجتمع وإفقاده أهم عناصر القوة الضرورية لاستدامة انسجامه، ألا وهي وحدة اللغة.
- والمثال الثاني –أيها السادة– يوضحه التهافت على استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في عصر السرعة الحالي للعالم الافتراضي، وهو ما أنتج الكثير من السلبيات كانت إحداها

تعويمَ "لهجةٍ" (إنْ صَحَّ القول) مختلطةٍ جديدةٍ تجمع بشكل هجين بين اللهجات المحلية والأرقام والحروف الأجنبية، وهي تنتشر بين مستخدمي وسائل التواصل هذه، ولاسيما الشباب، بسرعة فظيعة لا تهدد اللغة الفصحى فحسب، بل تهدد حتى اللهجات أيضاً. ولأنّ الكثرةَ تغلب الشجاعة والعادةَ تغلب المنطق، فالجهود الفردية، ومهما تعاظمت، لن تفيدنا في كبح هذا التهديد، كواحد من التحديات الأخرى للغة العربية؛ وللأسف، فالجهود الجماعية، رغم وفرتها، لا تصل إلى ساحة المعركة الرئيسة بالشكل الوافي لتطرح نفسها، وتطرح اللغة العربية السليمة كخيارٍ بديلٍ مناهضٍ للخيار اليسير المتاح والمنتشر بسرعة البرق.

ولهذا، ومرة أخرى، نحن بحاجة لقوة من نوع ما تساعد المُخلِصين على ولوج هذه الساحة "المعركة". قوةٌ مثلُ قوة القانون التي آمُلُ أنْ نسعى جميعاً لدى ذوي الشأن للوصول إليها، ومن ذلك على سبيل المثال، ربط تعليم اللغة العربية والكتب المدرسية والمرجعية لمراحل التعليم بالمؤسسات اللغوية، وعلى رأسها المجمع؛ وفرض إلقاء المحاضرات وحواراتها في المدارس والجامعات باللغة الفصحى؛ وزيادة المحتوى الرقمي المكتوب باللغة العربية الفصحى على الشابكة، وغزو وسائل التواصل بأكبر كمية من المعلومات المفيدة والمهمة للناس على أن تكون مكتوبةً باللغة الفصحى المبسطة.

ويأتي في هذا السياق أيضاً، العمل على تغيير نموذج الامتحان الجامعي المؤتمت الذي نعترف أن الضرورة قد فرضته ولكنه قادَ تدريجياً إلى إلغاء مهارتَيْ القراءة والتعبير اللغوي عند معظم طلبة الجامعات. وإنْ لم نستطع إلغاء هذا النمط الامتحاني المستورد لظروف موضوعية، فليكن مختلطاً، ليحافظ، ولو جزئياً، على قدرة الطالب على التعبير اللغوي. وأكاد أبتسم هنا إذ أتذكر أنّ نمط امتحان مقرري اللغة العربية والثقافة في الكليات الطبية بدمشق، مجال تخصصي، هو الأتمتة، وهما المقرران اللذان أفترض أنهما يشكلان فرصة لتعلّم اللغة العربية وأساليب التعبير، ولا أقول الفصاحة. ومن أين ستأتي خبرة الفصاحة وقد اختصرت الامتحاناتُ اللغةَ في خمسة حروف أجنبية.

السادة الأفاضل

لقد كان لي شرف المشاركة في المؤتمر السنوي التاسع لمجمع اللغة العربية في العام 2010 بعنوان "الكتابة العلمية باللغة العربية" من خلال المساهمة في إعداد بحث حول "مشكلات الكتابة

العلمية باللغة العربية" عرضه أستاذي الدكتور زيد العساف، المدير السابق للمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق، والذي لن تفي كلمات الشكر ما قدمه من جهود وما أتاحه لي من فرصٍ أسهمت في ترشيحي إلى المجمع الموقر.

لقد قدمنا في ذاك البحث خلاصةَ ما واجهناه من صعوبات في الترجمة وتعريب العلوم خلال سني عملنا المشترك الذي امتد لأكثر من 10 سنوات وهَدَفَ إلى تقديم محتوىً علميٍّ ضمن مجال التخصصات العلمية والتعليمية الحديثة يُغني المكتبة العربية بما ينفع من هذه العلوم، ويفيد طلاب الجامعات العربية وأساتذتها ممن يتعلمون ويعلّمون بلغتهم العربية الأم. وإذ أتذكر تلك المشكلات والصعوبات التي عُرضت في العام 2010 أكاد أجزم بأنها لا تزال قائمة في معظمها حتى الآن، ربما لعدم تنسيق الجهود المبذولة، وربما لأنها مشاكل جذرية متأصلة يحتاج التغلب عليها لجهود جبارة، وربما بسبب الأزمة الراهنة التي يعيشها الوطن كلُّه، والتي أقل ما يُقال عنها إنها أزمة هوية وإعادة تشكيلٍ للمفاهيم والقيم.

إننا أيها السادة نواجه حملةً شنيعةً من محاولات التغريب وطمس اللغة والهوية العربيتين في ثنايا عولمة قادمة كإعصار بابل. وبابل هذه حكايةٌ بحد ذاتها.... فالكلمة تشير إلى القصَّة التي ترد في الكتاب المقدَّس وتتعلَّق بتفريق الألسنة عقاباً لبني البشر لأنهم قصدوا من برجِ بابلَ "بلوغ رأسه السماء والوصول إلى الجنة" كما يقول الإصحاح الحادي عشر من سفْر التكوين. وقد دخلتْ هذه القصَّة إلى التراث العربي الإسلامي، فوجدتْ طريقها إلى معجم لسان العرب على النحو الآتي: "البلبلة: تفريقُ الآراء. وتبلبلت الألسن: اختلطت ... وقيل: وسُمِّيَت بابلُ [بهذا الاسم] لأنّ الله تعالى حين أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحاً فحشرهم من كلِّ أفقٍ في بابلَ فبلبل الله بها ألسنتهم ثمَّ فرَّقَتْهم تلك الريحُ في البلاد". والمدلول المباشر لهذه القصَّة هو أن التجانس اللغويَّ الأصليَّ تحوَّل إلى تباين، وأنَّ هذا التباين اللغويَّ هو الصيغة المبسَّطة للتباين الثقافيّ.

وفي القرآن الكريم قصةٌ مقابلةٌ لا علاقة لها ببابلَ أو بُرجها، بل تفترض وجود الاختلاف أصلاً. وردت هذه القصة في الآية الكريمة الثالثةَ عشرةَ من سورة الحُجُرات والتي تقول: "وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبَائلَ لِتَعَارَفُوا". إذاً فالتباين الثقافي موجود، وهناك هدف جوهري هو التعارف، تعارف الأمم ربما. وتعارفُ الأمم لا يتمُّ إلا من خلال تبادل المعارف، وهو هدفُ الترجمة الأسمى.

ورغم معرفة الجميع بأهمية ترجمة العلوم وتعريبها، لم يذكر التاريخ، للأسف، أمةً يعارضُ أفرادٌ منها بذل الجهود لإغناء لغتها بالمعارف العلمية كما تشهده الأمة العربية اليوم وسط تزايد نفوذ تيارين يعيقان تطور اللغة: التيارُ المحافظ الذي لا يرى سوى القديم والعودة إليه، والتيار المتفرنج الذي يعلن عجز اللغة عن الاستيعاب، وكلاهما يؤخر عملية تطور اللغة واكتسابَ المعارف الحديثة. وينادي معظم المهتمين بالعلوم التطبيقية على امتداد الوطن العربي بفَرْنجة التعليم والكتابة العلمية بحجة أن اللغة العربية لا تستطيع الاستيعاب من جهة، وأن المعارف كلها تنشأ هناك في العالم "الحلْم"، وأنّ سرعة تطور العلوم أكبر من أن تستوعبها أية جهود فردية أو جماعية، وأنّ عملية تعريب العلوم تحتاج إلى سندٍ مادّيٍّ غير متوافر. ولن أكون ساذجاً لأرفض هذه الأسباب جملةً وتفصيلاً، فالواقع الحالي يقدم لها حججاً أكبر مما يحلُم به أي عدوٍّ للغة العربية، وخصوصاً أننا لا نزال عموماً مستهلكين للمعرفة، نتلقى العلوم ونستوردها ولا ننتج إلا النزر اليسير منها.

تؤدّي ترجمة المعارف في النهاية – أيها السادة – إلى توطينها باللغة العربية، فيصبح ممكناً التفكيرُ بهذه اللغة دون سواها بقصد التوسُّع في المعرفة، وبذلك يمكن خدمة اللغة وتوسيعها من الداخل لا عبر الاستيراد من اللغات الأخرى؛ ورغم الكثير من المؤتمرات والندوات والمقالات حول أهمية تعريب العلوم وتعليمها باللغة العربية، لا نزال في موضعنا، نعيد مناقشة المشكلات ذاتها ونطرح التوصيات ذاتها، ونوحي دوماً بما يشبه الإقرار بعجزنا، ولا أدل على هذا العجز من نظرة نلقيها على واقع الترجمة الرديء في الوطن العربي، رغم ما لا يمكن إنكاره من أهميتها في توطين العلوم والمعارف ودمجها لتصبح جزءاً صميميّاً من ثقافتنا العامة والجمعية والخاصة فتؤهلنا لأن ننطلق في ركب الحضارة كفاعلين مؤثرين، لا مستهلكين تابعين. ويمكن الإشارة هنا إلى إحصاءات وضعتها منظَّمة اليونسكو عن وضع الترجمة في العالم حتى عام 2019:

- أوَّل خمسين مؤلِّفاً تُرجمت أعمالُهم إلى لغاتٍ أخرى: ليس من بينهم أيُّ عربي.
- أوَّل خمسين بلداً من حيث عددُ الترجمات عن لغات أخرى: جاءت مصرُ في الترتيب الثامن والأربعين (وللمقارنة: تحتلُّ بولندا الترتيب السابع، وهنغاريا الترتيب الثالثَ عشر، وتركيا الترتيب السابع والثلاثين، وإيران الترتيب التاسع والثلاثين).
- أول خمسين لغة تجري الترجمة إليها: احتلت اللغة العربية الترتيب التاسع والعشرين بعد

لغات كالصربية والإستونية والليتوانية.

- أول خمسين لغةً تجري الترجمة منها: تحتلّ اللغة العربية الترتيب السابع عشر، (وللمقارنة: تسبِقُها اللغة التشيكية التي تحتلّ الترتيب الثالث عشر، والنرويجية التي تحتلّ الترتيب الخامس عشر).

وقد يتَّضح موقعنا من الترجمة إذا علمنا أن عدد العناوين التي ترجمها الألمان إلى لغتهم تجاوز ثلاثمئة ألف، في حين لم يصل عدد العناوين المترجمة إلى العربية إلى أربعة عشر ألفاً، علماً بأن الناطقين بالعربية يزيدون على أربعة أضعاف الناطقين بالألمانية.

إننا نحتاج – أيها السادة – إلى خطة مُستدامة، ربما تحتاج إلى عقود، تجد السند القانوني والمادي، وتنتظم فيها جهود المؤسسات والهيئات المعنية والأفراد المخلصين بشكل متناسق لتنقل علوم الأمم الأخرى ومعارفها بطريقة تضمن اندماجها في الثقافة العامة العربية دون أن تكون حكراً على النخبة فتصبح جزءاً من التفكير العربي الجمعي لننطلق بعدها نحو مكانة مميزة تليق بنا، وإلا فإننا ستجتاحنا الآثار السيئة للعولمة.

وهذا الكلام ليس محض خيال، فقد عشت شخصياً تجربةً مميزة في هذا السياق كنت فيها على رأس فريق من المترجمين تعاونَ مع المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق والمكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية في الشرق الأوسط بالقاهرة، وكانت الغاية من هذا التعاون إصدارَ النسخة العربية الشهرية من أهم مجلات منظمة الصحة العالمية بالتزامن التام مع النسخة الإنجليزية. واستمر هذا المشروع أربع سنوات بدءاً من العام 2009، قدمنا خلاله باللغة العربية أحدث الأبحاث الصحية العالمية وقت صدورها باللغات الأخرى مباشرة، وبمنتهى الموضوعية والمنهجية والموثوقية. كان هذا المشروع فرصةً كبيرةً سمحت لأفراد المجتمع، وليس لبعض الأطباء والعاملين الصحيين ممن يجيدون الإنجليزية فقط، بالاطلاع على موضوعات تهم المجتمع بأسره بقدر ما تخص كل فرد فيه فتمكنه من الإسهام في المسؤولية المشتركة بالمحافظة على الصحة، اتساقاً مع النظرة الشمولية للصحة العمومية التي تربط بين الصحة والجوانب السلوكية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية. ولو استمرت هذه الترجمة لكانت فرصة كبيرة لتوطين واحدٍ من أهم العلوم الطبية في وطننا العربي واحتواء مضامينه وقيمه في الثقافة اللغوية والجمعية للمجتمع العربي. لكن، وللأسف، ودون سابق إنذار أو تبرير، أبلغتنا منظمة الصحة العالمية بقرار إيقاف المشروع الذي لم نجد له مبرراً إلا، وكما

أعتقد شخصياً، تحويل التمويل، فقد تحولت الأموال، برأيي، إلى هدف "ليس بريئاً" نرى كلُّنا الآن آثاره الفظيعة على امتداد وطننا العربي الذي أعتقد أنه مهدد في كينونته ووجوده، ولعل اللغة، وهي الوعاء الحضاري والفكري، هي أول أهداف هذا التهديد. ويتضح من هذا النموذج أهمية القوة التي سبق أن تحدثتُ عنها، وتتمثل هنا بالعمل الجماعي وتبني الجهات العليا والدعم المادي؛ وهذا ما يجب أن نسعى إليه جميعاً.

كل ما قصدته من عرضي السابق هذا هو التنبّهُ إلى أهمية تعريب العلوم لتصبح جزءاً من التفكير الجمعي وليس مجرد نقل للمعلومات والمصطلحات، والإشارةُ إلى أهمية تجاوز العقبات وحل المشكلات التي تعيق الوصول إلى هذه الغاية من خلال التمسك بالحلْم المنشود وبالعمل على توفير مستلزمات القوة القانونية والمؤسساتية والمادية والفردية والجماعية. وكل ما أتمناه على أعتاب هذه المرحلة الجديدة من حياتي هو أن أكون قادراً، من موقعي في هذا المجمع الكريم، وبصفتي طبيباً وأستاذاً جامعياً، على الوفاء لمن اختارني ولسوريتي التي أسلفت توضيحها وللغتي؛ وسأبذل كلَّ ما أستطيعه لأكون جديراً بهذا الموقع، فأسيرُ على خُطى سلفي الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا رحمه الله، داعياً الله أن يمكنني من متابعة المسيرة المثمرة الطيبة التي سبقني إليها، وأن أحقق ولو جزءاً يسيراً مما استطاع تحقيقه.

لقد قضى الدكتور محمد زهير البابا جُلَّ حياته ينهل من العلم ويخدمه حتى صار منهلاً له، وخدم اللغة العربية حتى ترك أثراً لا يخفى على كل مهتم بعلومها، وتنقّل في أسفاره من مكان إلى آخر باحثاً عن أصولٍ عربيةٍ وعلميةٍ حوّلها إلى علومٍ مُتاحةٍ للجميع بلغته الأم، وقبل كل هذا تمسك بالمثل والقيم فكان مثالاً للدارس والباحث والمعلم في جامعته وللأب في عائلته وللصديق في مجتمعه. وأقتبس هنا بعضاً من وصف الأستاذ الدكتور محمود السيد رئيس المجمع للمرحوم البابا وحياته فقد قال فيه: "لقد كانَ علَماً من أعلام الفكر والثقافة في وطننا، علماً إذا ما ذُكِرَ فتَمثَّلَ الذكرى على منصةٍ من المناقب الرفيعة والأخلاق الفاضلة السامية والعلم الأصيل. لقد كانت حياتُه حافلةً بالعطاء على مختلف المستويات، تدريساً وإدارةً وبحثاً وترجمةً وتأليفاً وتحقيقاً، وكان يعمل بصمتٍ في منأى عن التبجح والظهور، وتلك لعمري هي سمةُ العلماء الأفذاذ، فكان شَموخاً في تواضعه ومثالاً للعالم المتواضع والباحث المدقق، يزيّن ذلك كلَّه عفةُ اللسان وصفاءُ السريرة وسموُّ الأخلاق وصلابةُ الانتماء."

أيها الحفل الكريم

شهدت دمشق ولادة الدكتور زهير البابا ووفاته رحمه الله، وبينهما عاش مسيرةً امتدت نحو تسعين سنة، بدأ محطتها الأولى في سن السادسة بتعلّم القرآن الكريم، سندِ اللغة العربية ومصدرِ قوتها والتمكّنِ منها. ومن ثم احتضنته مدارس دمشق المتميزة ليتدرّج ويتميز فيها حتى حصل على شهادة التعليم الثانوي من مدرسة التجهيز. وفي عام 1945 نال المرحوم الإجازة في علوم الصيدلة والكيمياء من المعهد الطبي العربي بدمشق. ثم أوفد إلى جامعة بروكسل في بلجيكا للحصول على شهادة الدكتوراه في اختصاص علم العقاقير والنباتات الطبية، وحصل عليها بدرجة جيد جداً ليعود إلى دمشق حيث تم تعيينه مدرساً في كلية الطب قسم الصيدلة، وكُلف تدريسَ مقرر علم العقاقير الذي أنشئ حديثاً في ذلك القسم ثم تدرج بعد ذلك في الهيئة التدريسية حتى أصبح أستاذاً ذا كرسي في عام 1962، وهو العام نفسه الذي استقلت فيه كلية الصيدلة عن كلية الطب، فكان وكيلاً لها ورئيساً لقسم العقاقير فيها.

وفي عام 1963 أُعير الدكتور البابا إلى جامعة الملك سعود في الرياض، وعين فيها رئيساً لقسم العقاقير وعضواً في مجلسَي كلية الصيدلة والجامعة. وكان الأستاذ الوحيد الذي أجيز له أن يلقي محاضراته باللغة العربية في الكلية.

وفي العام 1970، صدر كتاب بتعيينه عميداً لكلية الصيدلة، وتابع تدريس علم العقاقير، كما كُلِّفَ لاحقاً تدريسَ مقرر "تاريخ الصيدلة وتشريعها وآدابها". فضلاً عن ذلك، فقد قام بالتدريس أيضاً في معهد التراث العلمي العربي الملحق بجامعة حلب. كما سُمّي في العام 1982 عضواً في اللجنة الوطنية السورية للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم.

وفي العام 1988 تم انتخاب الدكتور البابا ليكون عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية وبقي حتى انتقل إلى رحمته تعالى في عام 2011 تاركاً خلفه سيرةً مفعمةً بالعطاء والعلم والمحبة والإنسانية. وأستشهد هنا بوصف الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع السابق للدكتور زهير البابا رحمهما الله إذ قال: "لقد تميز فقيدنا بإصراره على الإفادة من التراث العلمي العربي مؤكداً أن علينا إبراز ما هو معروف من هذا التراث ليبقى، إذ إنَّ ما تضيفه دراساتنا إليه ينير الماضي، ويكشف نواحي مغمورة فيه، يستفاد منها في مسارنا نحو تعرف الحقيقة، أو نحو تسهيل الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه منها. ولقد كانت منطلقات الدكتور البابا في هذا المسلك تؤكد قناعتنا بأن لغتنا العربية لغة حية، لم ينقطع اتصالها بجذورها، ولزام علينا الحث

على ربط ماضيها بحاضرها، وأننا ما دمنا في مواجهة حاضر تتدفق فيه الكشوف العلمية، فنحن بحاجة إلى سبر أغوار تراثنا لإبراز ما فيه من فكر وخلْق وإبداع، لعلنا نستفيد من خبرات أسلافنا حين واجهوا عولمة غامرة، تمكنوا أن يدخلوها إلى اللغة العربية الصامدة على قواعدها، المفتوحة على كل جديد، مستفيدين من طواعيتها ودقة مقاييسها".

لقد شارك المرحوم البابا في الكثير من اللجان والهيئات العلمية مما يعكس مكانته العلمية الكبيرة، فقد كان عضواً في الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب ولجنة تعريب المصطلحات العلمية وهيئة الموسوعة العربية ولجنة مراقبة الأدوية ولجنة اختبار المرشحين لنيل جائزة الكويت للتقدم العلمي ولجنة النشر العلمي في المجلس الأعلى للعلوم، وكان من مؤسسي معهد التراث العلمي العربي ومعمل الخميرة (الذي كان الأول من نوعه في سورية آنذاك). كما نال العديد من الجوائز فقد منحه المؤتمرُ الرابعَ عشرَ لاتحاد الصيادلة في مدينة القاهرة عام 1974 الوسام الذهبي تقديراً لجهوده في النواحي المهنية والتنظيمية المتعلقة بأمور الصيدلة والصيادلة؛ وحصل على جائزة الكويت للتقدم العلمي في مجال الكيمياء والصيدلة عند العرب في العام 1986.

وأما عضويته في مجمع اللغة العربية فقد كانت مكللةً بالأعمال العلمية المتنوعة حيث كان عضواً في عدة لجان مجمعية أسهم فيها إسهاماً فعّالاً ومنها، على سبيل المثال لا الحصر، لجنة مصطلحات العلوم الرياضية والمعلوماتية والفيزيائية والكيميائية، ولجنة المخطوطات وإحياء التراث، ولجنة مصطلحات العلوم الطبيعية والزراعية، ولجنة المعجمات اللغوية، ولجنة مصطلحات الأحياء الحيوانية، ولجنة مصطلحات الأحياء النباتية.

كما شارك البابا في أعمال عدة ندوات وألقى العديد من المحاضرات ونشر العديد من الأبحاث والمقالات في مجلة المجمع فوصل عدد محاضراته إلى نحو 25 محاضرة ألقاها في عدة مؤتمرات وندوات محلية وعربية وأجنبية فيما بين عامَي 1969 و2000، وكانت متعددة في موضوعاتها كالصناعة الصيدلية، والأدوية، ودساتير الأدوية العربية، والأكحال، والفحوص المخبرية، وعلم السموم، والفلاحة، والطب العربي، والتراث الطبي العربي، وعلم الجنين، والأحجار الكريمة، والتعدين، والمعاجم الطبية باللغة العربية.

لقد ترك لنا المرحوم البابا الكثير من الإنجازات التي قدمها منفرداً أو بالمشاركة مع زملاء آخرين، وهي تدل عليه وتصف تفانيه في خدمة العلم واللغة والتراث، ومن هذه الإنجازات، على سبيل المثال لا الحصر: علم العقاقير وتشخيصها المجهري الكيميائي، وتاريخ الصيدلة

وتشريعها وآدابها، وفهرس المخطوطات الطبية للحضارات القديمة العربية والإغريقية في المكتبة الوطنية بباريس، ومعجم مصطلحات العلم والتكنولوجيا، وأقْرَباذين القلانسي (ومصطلح أقْرَباذين هو تعريب لكلمة يونانية تعني دستور الأدوية). وقام الدكتور البابا بتحقيق العديد من المؤلفات التراثية كبعض كتب ابن سينا الطبية (كتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية، والأرجوزة في الطب، وكتاب الأدوية القلبية)، وعلم السموم لابن وحشية، وأقْرَباذين ابن التلميذ، وغاية الإحسان في خلق الإنسان.

ولم أجد ختاماً لحديثي عن المرحوم الدكتور البابا أوقَعَ مما وصفه به الدكتور مكي الحسني أطال الله في عمره في حفل تأبينه حين قال: "كان الفقيد رجلاً فاضلاً يتحلى بمزايا الأفاضل الذين يقفون حياتهم لتحقيق هدف نبيل. وكان إنساناً طيب العشرة، هادئ الطبع، صادق القول، مخلصاً في عمله، وفياً لأصدقائه. يحدثك بروية فتسمع منه ما يعبر عن صفاء النفس والفكر. وكان وافر الأدب يحسن الإصغاء إلى محدثه، ويعبر عن رأيه بكثير من التهذيب والكياسة. كما كان رب أسرة مثالياً. وكان لتنشئة أولاده أثرٌ طيبٌ جداً، تجلى في حسن خلق ابنه الدكتور مازن، وابنته الدكتورة خلود وإتقانهما العمل، وسيرتهما الطيبة".

وأخيراً، ومن تجاربي المتواضعة، وأمنياتي العميقة، ومن استعراض مسيرة المرحوم البابا، اسمحوا لي أن أدعو جميع المهتمين إلى نقل المعارف العلمية إلى لغتنا العربية الحبيبة بطريقة مبسطة تصل إلى الجميع وتصبح جزءاً من الثقافة الجمعية، لا حكراً على النخبة.

وفقنا الله وإياكم وشكراً لكم

المصدر الأجنبي للإحصاءات

UNESCO Index Translationum - World Bibliography of Translation-Statistics: https://www.unesco.org/xtrans/bsstatlist.aspx?lg=0

المصادر العربية لسيرة المرحوم الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا:

موقع مجمع اللغة العربية على الشابكة

الكلمات التي ألقيت في حفل استقبال الدكتور محمد زهير البابا في مجمع اللغة العربية بدمشق

الكلمات التي ألقيت في حفل تأبين الدكتور محمد زهير البابا في مجمع اللغة العربية بدمشق

كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيد في تأبين الدكتور محمد زهير البابا في جامعة دمشق